نـهرُ بسّام جميدة المتدفق إبداعاً

د. جمال الجزيري

جامعة السويس، مصر؛ جامعة طيبة، السعودية

مجموعة "ويبقى النهر متدفِّقًا" (حمارتك العرجا للنشر الإلكتروني، يناير 2015) هي المجموعة الأولى للكاتب السوري بسّام جميدة في مجال الومضة القصصية. وهي حصيلة عام كامل من الكتابة المتواصلة التي تسعى لأن تتلمس طريقها بدقة وإحساس ومسؤولية في مجال كتابة الومضة القصصية. وبسام جميدة كاتب يحس بالمسؤولية تجاه قلمه، ويسعى لتطوير نفسه باستمرار، وإلى اقتناص كل الفرص المتاحة كي يعمّق أسلوبه ويضيف لهذا الفن. وهو سعيٌ يُحسب له، سيما في ظل الفوضى التي نلاحظها هنا وهناك في معظم المجموعات التواصلية الالكترونية المختصة بالومضة القصصية.

ومنذ أن عرفتُ بسام جميدة في بداية تأسيس سنا الومضة القصصية، أدركتُ أنه لا يلهث وراء الشهادات أو البريق الزائف أو المجاملات التي تضر الكاتب أكثر مما تفيده، فهو يناقش باستمرار في قضايا مختلفة تتعلق بالومضة، ويحاول أن يدلو بدلوه فيها، وأحياناً تجده يراقب في صمت كي يستفيد من النقاشات. كما أنه كثير القراءة والمتابعة، فحرصه على تطوير

أسلوبه، وعلى أن يؤسس لنفسه أرضية ثابتة يقف عليها يجعلانه لا يستسهل كتابة الومضة، وإنما يدقق فيما يكتبه ويسعى لأن يكون الكيف أهم من الكم في كتاباته.

لقد سعدتُ كثيراً بقبوله الانضمام إلى فريق إدارة سنا الومضة القصصية في نوفمبر الماضي (2014) بعد عشرة أشهر تقريباً من تأسيس المجموعة. وأدى انضمامه لإدارة المجموعة إلى تكثيف إسهامه فيها، وواكب ذلك نقاش مشترك في نافذة مجموعة رسائل الإدارة على الفيسبوك أدى إلى التقارب في الرؤى فيما يتعلق بكتابة الومضة، وفيما يتعلق بكيفية تطوير المجموعة. كما أن إحساسه بالمسئولية جعله يبدأ في كتابة مقالات نقدية عن ومضات الأعضاء لنشرها في مجلة سنا الومضة القصصية، الأمر الذي جعل المجموعة تكتسب ناقداً ومبدعاً في الوقت ذاته.

تبدأ مجموعة "ويبقى النهر متدفقاً" بقسم "من عمق الجرح"، وهو قسم يضم ومضات تطفح مرارة وأسى، إذ تحاول ومضات هذا القسم أن تلتقط جوانب من الحياة الكابوسية المعاصرة الممتلئة بالموت والفقد والغربة، وفقدان الاتجاه وغياب الأمان الشخصي والاجتماعي والسياسي والوطني، وكأن الإنسان المعاصر صار قشة في مهب الريح. فيخرج الإنسان من بيته بهدف ممارسة أنشطة حياته ليفاجأ بالموت عبر رصاصة طائشة أو تفجير ما أو بفقد الوطن ذاته، وكأن الموت صار الأساس وصارت الحياة مجرد

حالة استثنائية. وإذا غاب الموت عن بعض الومضات، فإننا نجد مكانه القمع والفقر وافتقاد أساسيات الحياة، وكأن الحياة ذاتها معاناة متواصلة، وكأن غربة الداخل وغربة الخارج قدر لا فرار منه وسط هذه الأجواء الكابوسية.

إن عنوان المجموعة ككل مستمد من ومضة "فانتازيا" التي تندرج تحت القسم الأول من أقسام المجموعة "من عمق الجرح": "صمت. انفجار. دخان. صراخ. دماء. غروب الشمس. نازحون بلا ذكريات.مصورون ووكالات أنباء، ويبقى النهر متدفقاً". وبالرغم من الجو الكابوسي لكل ومضة، ومن الدلالات السلبية التي قد يتخذها النهر فيها، فإن النهر يتحرر من هذه الدلالات السلبية في عنوان المجموعة ككل، ليؤكد لنا بسام جميدة أن الحياة ستستمر بالرغم من كل مظاهر الموت التي تتبدى للعين الآن. فعنوان المجموعة ككل تحرر من سياقه الخاص في الومضة، وصار عنواناً له بنيته الخاصة بعيداً عن الومضة ذاتها، فيقترن بالحياة والتجدد والقدرة على الصمود أمام كل العوائق التي تحاول أن تقضي على الحياة.

والغالب على ومضات هذا القسم الأول استعمال ضمير الغائب في السرد، وكأن الراوي ومِن ورائه المؤلف يحاول أن ينظر إلى تجربة الموت وكأنها شيء خارجه وبعيداً عنه، حيث وقف ليرصد الموت من الخارج في الغالب، وليبين آثاره السلبية، وكيف أنه يجعلنا نفقد الكثير من مقومات حياتنا، دون أن يكون الراوي طرفاً في صناعة الموت أو حتى ضحية له.

وهناك ومضات قليلة في هذا القسم مروية بضمير المتكلم، وهي ثلاث ومضات: "شجاعة"، "فزع"، "تساؤل". ومضة شجاعة مروية بضمير المتكلم الجمع الذي يجمع الراوي بالكثيرين من أبناء مجتمعه الذي يحاصره الموت من كل اتجاه: "وحدنا، نتلقف الموت بأيدينا، عن شمالنا وعن يميننا، ونمضي غير مبالين". والشجاعة هنا نوع من التحدي، وإن كانت تقترن باللامبالاة، وهي لامبالاة ناتجة في الغالب عن كثرة التعرض لتجارب الموت لدرجة أن الموت ذاته صار تجربة عادية لا تستحق التوقف ولا التأمل. والفعل "نمضي" يدل على السير على طريق الهدف: هل هو الحياة؟ هل هو محاولة تفادي الآثار السلبية للموت؟ هل هي سخرية ومفارقة يكتسبان مرارة في سياق الومضة لدرجة أن الشجاعة ليست شجاعة وأن اللامبالاة مبالاة تامة؟ أما الومضتان الأخرتان المرويتان بضمير المتكلم فهما ومضتا "فزع" و"تساؤل"، وفيهما نجد تبدد الحلم للراوي وانتشار الغربان والنعيق والدنس والتساؤل حول ماهية الخراب الذي حل بالبلاد، وكأن هذه البلاد صارت صحراء جرداء تخلو من كل مظاهر الحياة.

أما القسم الثاني من أقسام هذه المجموعة؛ فيدور معظمه حول الفقد والاغتراب والبعد والعجز، خاصة في إطار علاقات المحبين. ويتنوع السرد في ومضات هذا القسم ما بين ضمير الغائب وضمير المتكلم وضمير المخاطب. وفي القليل من هذه الومضات يحدث لقاء من نوع ما، سواء كان

ذاك اللقاء في الحلم أو على مستوى التخيل أو في الواقع، أو من خلال حضور ضميري المخاطب والمتكلم في نفس الومضة وهو حضور لغوي قد يجسد حضوراً فعلياً أو يكتفي بوجود الضميرين معاً في ومضة ترمز لتوحدهما الرمزي. وفي معظم الحالات، هنا بحث عن المحبوبة المفتقدة، أو سعي للوصال بها، أو مساءلة لغيابها، أو تلمس للقاء حتى لو كان عابراً في الذاكرة دون أن يصحبه لقاء على مستوى الواقع.

والقسم الثالث الذي يأتي بعنوان "ليس هو ولستُ أنا" يمكننا أن نقسم ومضاته إلى قسمين: قسم مسرود بضمير الغائب ينفي عن الشخصية الواردة في هذه الومضات كونها تمثل نفسها، وقسم مسرود بضمير المتكلم يجسد حالات مختلفة لراو يغترب عن ذاته بسبب مراوغة ذاكرته وذكرياته في الغالب. الومضات المسرودة بضمير المتكلم تتحرك في إطار عالم لا يعترف بالحلم الشخصي ولا الحلم العام، عالم تصير فيه الذكريات مستحيلة ومستعصية، وتصير فيه الذكرى أرق والذاكرة عناد متواصل، عالم تنفصل فيه الذات عن شيء حميم بالنسبة لها، الأمر الذي يدعو إلى اغترابها وإن كان في نفس المكان، عالم يجد الراوي فيه نفسه محاصَرًا بتجليات عديدة للموت الفعلي والرمزي، سواء كان على مستوى الواقع أم الحلم أم الذاكرة أم الذكرى. أما الومضات المروية بضمير الغائب، فتنقسم إلى أقسام فرعية، منها ومضات تجسد غياب الذات الاضطراري الذي يرتبط بانكسار الحلم

وأفوله، بعدم حضور الذكرى واستعصائها على من يقوم بالتذكر، القهر الحالي الذي يمثل قهراً مضاعفاً لغياب الذكرى وكابوسية الواقع، الآهة التي لا تجد لها صدى في واقع الشخصية. وهناك ومضات مسرودة بضمير الغائب في هذا القسم تجسد حالة النفاق والكذب والخداع والزيف حتى في فكرة الموت ذاتها والالتفاف حول صاحب المنصب في حياته أو في أوج سلطته وعندما تبتعد عنه السلطة أو تفارقه الحياة يتفرق من كانوا حوله دون أن يذكروه بشيء، والبيروقراطية المتفشية في المصالح الحكومية وتكريس ثقافة إدارة الأدعياء وما إلى ذلك من قضايا تعج بها مجتمعاتنا المعاصرة.

يتناول القسم الرابع الذي يأتي بعنوان "من خلف الجدران" مشاهد متنوعة من الحياة الأسرية، وهي مشاهد كابوسية أو كئيبة بشكل أو بآخر، فتمثل أحياناً المسكوت عنه في الحياة الأسرية وتسلط الضوء على لحظة المواجهة التي تكشف عن أسرار دفينة أو تقويم لمسار أو رغبة في التكشف وما إلى ذلك. وصفة الأسرية هنا قد تكون فعلية أو محتملة، بمعنى أنها قد تشير إلى أسرة كان بإمكانها أن تتشكل، ولكن تشكلها فشل في مهده نتيجة لسوء ظن أو سوء فهم أو عدم تقبل الطرف الآخر كإنسان في حد ذاته، وما إلى ذلك من حالات تنم عن عدم القدرة على التعايش أو التكيف أو القبول.

ويسلط القسم الخامس "ساحة وميدان وحلبة" الضوء على لقطات من ميدان الرياضة، حيث يستفيد فيها بسام جميدة من عمله في مجال الصحافة

الرياضية، ويرصد لنا لقطات إنسانية من رياضات مختلفة، مثل رياضة كرة القدم والعَدْو ورياضات ذوي الاحتياجات الخاصة، ويرصد تأثير عشق كرة القدم مثلاً على الحياة الزوجية، وخلط الدين بالرياضة، وغياب اللباقة أحياناً لدى من يعلقون على المباريات، وخلافات المشجعين وصراعاتهم.

يستعير بسّام جميدة في بعض ومضات القسم السادس "ارفعوا الستار" عالم التمثيل والأداء خاصة في مجال المسرح وإلقاء الشعر، ويبني صورته السردية على حدث مستمد منهما ليلتقط لنا لقطات مميزة من هذين العالمين، فيتناول في "ميلودراما" على سبيل المثال اندماج المشاهد في العرض المسرحي ويتساءل عما إذا كان هذا الاندماج راجعاً للألم الذي تجسده المسرحية، أم لإتقان الممثل أداء هذا الوجع. وفي ومضة "انفعال"، يتناول أثر اندماج المشاهد في العرض المسرحي عليه بعد انتهاء هذا العرض، وكيف أن هذا العرض ذكّره بوطنه المفتقد أو جعله يعيش فيه لحظات تخيلية لا تجد لها أثراً على أرض الواقع. وفي ومضة "خوف"، يرصد لنا لقطة من حياة مواطن مقهور يخلط ما بين العرض المسرحي والواقع ويظل يصفق للبطل خوفاً منه حتى بعد موته على خشبة المسرح. وفي ومضة "وهم"، نجد تجسيداً آخر للتماهي بين الواقع والتمثيل، ولكن اتجاه هذا التماهي عكس اتجاهه في ومضة "خوف"، فبطل المسرحية هنا هو الذي يخرج بعد انتهاء العرض ويشد المشاهد الذي كان يعجب بالمسرحية ويصفق له ليدخله في

عملية التمثيل حتى يحقق الممثل بطولة لا تتحقق على أرض الواقع، ويحارب طواحين الهواء في إشارة معاصرة إلى دون كيشوت أو كيخوته. وفي ومضة "دهشة"، ينتقل بسّام جميدة إلى عالم إلقاء الشعر ويرصد لنا تململ الجمهور المعاصر من الشاعر الذي يلقي قصائده، مديناً بذلك الشاعر والجمهور على حد السواء، فلا الجمهور يهتم بالشعر، ولا الشاعر حاول أن يُشرك الجمهور في قصائده بحيث يجعلهم يندمجون معه.

وفي القسم السابع "دراما الحياة"، تتخذ الدراما هنا معنى التحولات السلبية في الغالب في حياة الشخصيات، وكأن الدراما هي التقلب وهي مفارقة الأحداث وهي تحول الشخصية من شخصية حسنة في الغالب إلى شخصية شريرة أو سلبية أو سلطوية أو عاجزة. وتقترن هذه التحولات بتحولات في بنية المجتمع وشبكة العلاقات بين الناس وعلاقات السلطة بين الأشخاص والحروب التي لا تبقي شيئاً، والفقر الذي لا يجد صاحبه منه مخرجاً، وما إلى ذلك من ظواهر سلبية تتفشى في مجتمعاتنا بشكل أو بآخر.

ويأتي القسم الثامن والأخير من هذه المجموعة بعنوان "وميض"، ينتقد فيه بسام جميدة بعض الممارسات السلبية لبعض الذين يدَّعون كتابة الومضة ويظنون أن الومضة مجرد تلاعب بالألفاظ أو استعمال علامات ترقيم بعينها أو مفارقة أو دهشة أو تضاد أو تناقض بين شقي جملة أو بين جملتين وما إلى ذلك من ألعاب لغوية يمارسها مدَّعُو الكتابةِ ويظنون أنهم بألعابهم هذه

يكتبون أدباً أصيلاً. كما يتناول هنا العملية الإبداعية في حد ذاتها وكيف أن الكتابة قد تكون مراوغة أحياناً، وكيف أن بعض الناس يخلطون بين ما هو موجود في النص وحياة كاتبه ويحاسبونه على ذلك كما في ومضة "تقمُّص".

وفي النهاية، سعدتُ بتقديم هذه المجموعة للقارئ العربي، فلقد شهدتُ مولد نصوصها أولاً بأول عند نشرها في مجموعة سنا الومضة القصصية التي كان لي شرف تأسيسها مع الكاتب المصري عصام الشريف والكاتب السوداني عباس طمبل، كما سعدتُ بانضمام الأستاذ بسام جميدة، والأستاذ حسونة العزابي (ليبيا)، والأستاذة هيفاء حماد (سوريا)، والدكتورة هيفاء حمودة (سوريا) والأستاذ يوسف الكميتي (ليبيا) لطاقم إدارة المجموعة. وسأكتفي بهذا القدر في هذه المقدمة، وسأتناول بعض ومضات الأستاذ بسام بالتفصيل في مقالات منفصلة منشورة في نهاية هذه المجموعة. ويسعدني نشر المجموعة في سلسلة ومضات الكتّاب التي تصدرها مجموعة سنا الومضة القصصية بمناسبة عيد ميلادها الأول احتفاء بالكتاب الذين واصلوا مسيرة الإبداع الوامض طوال السنة الأولى من عمر سنا الومضة القصصية.